رحلة الربع ساعة

محمد عبد الجواد سيف

كالعادة في صباح كل يوم جديد أتأهب للذهاب لعملي وأنا في ذلك في سباق مع الشمس أينا يخرج للعلن أولا ،فأنا أعمل معلم في إحدى القرى المجاورة ، خرجت من المنزل والآن على مقربة من موقف السيارات المؤدي إلى تلك القرية فلا يفصل بيني وبينه سوى دقيقتين ، أهاتف زميلي وأذكره بالوقت وأتعجله حيث أن اليوم هو يوم السوق في المدينة الذي يشهد ازدحاما كبيرا ، كما أننا – في العادة – نكون في صراع مع الزمن للوصول إلى المدرسة قبل أن يدق جرس طابور الصباح .

ها أنا ذا قد وصلت إلى الموقف وتفقدت السيارة التي عليها الدور فوجدتها لحسن الحظ مازالت فارغة تنتظر مزيدا من الركاب لكي تكتمل ، فهي فرصة لانتظار زميلي الذي يؤكد أنه على مقربة من الموقف .

في بضع دقائق حضر زميلي فحمدت الله أننا سنركب هذه السيارة بدلًا من أن ننتظر أخرى وركبنا السيارة ولكن لم تكتمل بعد أعداد الركاب فمازال ينقصنا راكب ، ظل الجميع يترقب لوصول أي شخص لكي تكتمل السيارة وتنطلق ، وإذ بسيدة تحمل قُفَّةٌ مليئة بخيرات السوق المتنوعة تركب السيارة في عجلة من أمرها وتستقر على الكرسي على إثر صيحات السائق المتتالية التي وجهها إليها للإسراع .

انطلقت السيارة مسرعة ، وبعد بضع دقائق ، قد حان موعد جمع

الأجرة ، فقمت أنا وزميلي بمهمة جمعها من جميع الركاب وتصادف جلوس رجل مسن بجوارنا - يبدو عليه أنه في أواخر العقد السابع من عمره - قد أعطانا أجرة راكبين ، فاستفهم منه زميلي عن ذلك حيث أنه يجلس وحيدًا بجانبنا فلم يدفع أجرة راكبين ، فأجابه أنه دفع أجرة السيدة التي ركبت مؤخرا ثم ناداها قائلا :

- أم أحمد ، لا تدفعي الأجرة يا بنت أختي ، فقد دفعتها.

رغم أنه لم يعلمها عند ركوبها بوجوده .

التفتت السيدة إلى الخلف لترى من يناديها حيث أنها ركبت دون أن تتفقد وجوه الركاب فابتهجت عند رؤية هذا الرجل المسن قائلة له :

- تعيش يا خالي ، ربنا يبارك فيك ، لا مؤاخذة مخدتش بالي إنك راكب.

تدخل زميلي في الحوار قائلا :

- بارك الله فيك يا حج ، الناس الكبيرة مازلت تعتني بأهلها وناسها

هذا الموقف الرجولي لهذا الرجل جعلني أنتبه إليه فنظرت في وجهه فإذ بالتجاعيد التي احتلت جميع أركانه تخفى الكثير والكثير من عبق زمن كنت أتمنى أن أكون أحد أبطاله ، مما حرك فضولي أن أتوجه إليه بالحديث - رغم حيائي الشديد من الحديث مع شخص لا أعرفه ولا آلفه – ولكن رغبتي في فك شفرات تلك التجاعيد فاق حيائي بكثير ،،،

فقلت له :

- ربنا يديك الصحة يا عم الحج ، افتقدنا كثيرا لأخلاق زمنكم الجميل بما فيه من تواصل وتقارب)

نظر الرجل بعينيه الضيقتين المحاطتين بتلال من التجاعيد يتفقد من يتحدث إليه ثم تنهد من أعماق قلبه وسكت هُنَيْهَةً مما جعلني أرتاب من الأمر ، ولكنه قطع ريبتي قائلا :

أتتعجب من هذا الموقف البسيط ، أما لو شهدت أيامنا في عزها لقد كان الجلباب واحدا والجيب واحدا والحاضر يسد.

قلت له مؤمنا على قوله :

- نعم ، إن أمي تحكي لي دائما عن تلك الأيام و مازلت أستزيدها من هذة الأيام باعا.

ثم نظر من نافذة السيارة وأشار بيده قائلا :

- أنظر لتلك المسافات الشاسعة التي «بوّرها» الناس بالبناء عليها فكادت المدينة تلتحم بالقرية ، لقد كانت تكتسي باللون الأبيض في الشتاء حيث جني القطن ، وباللون الذهبي في الصيف حيث حصاد القمح

وهو بذلك يقصد فصلي الخريف والربيع .

ثم استأنف قائلا :

لقد كنا نستيقظ قبل الشمس ننطلق للسعي والرزق وننام بعد صلاة العشاء مباشرة ، كانت تمر علينا الأهلة ونحن صفر الأيادي ولكن كانت قلوبنا ممتلئة بالخير

كنت أنصت إليه وأتأمل وجهه باهتمام شديد ، لقد نجح هذا الرجل في إثارة شوقي لتلك الأيام التي لم أعشها .

ثم قال لي :

يبدو أنك ضيف ؟

فأجبته قائلا :

نعم ، أنا مدرس عندكم في هذه القرية

فقال لي :

هل تجد مشقة في التعامل مع الطلاب ؟

فقلت له :

المشقة الأكبر في التعامل مع أولياء الأمور في هذه الأيام ، يبدو أنهم قد تسلل إليهم داء المدينة في التجرؤ على المدرسين

فقال لي مبتسما :

هل تعلم أنني أجيد القراءة والكتابة بإتقان رغم أني لم أذهب إلا للكتّاب وذات مرة قام سيدنا بـ "مدّي" بالخرطوم على رجلي لمجرد أني أخطأت و جعلت آية تسبق آية ، فهربت منه و عدت إلى المنزل وعزمت على ألا أذهب ثانية إلى الكتاب ، فلما علمت أمي برغبتي في عدم الذهاب إلى الكتّاب غضبت مني فحكيت لها هذا الموقف ، فقامت بإلقاء قطعة جلة علي فأصابتني بجانب عيني اليمني وكانت هذة القطعة جافة جدا فأحدثت جرحا سطحيا جعلني أتألم وأتأوه ، فأصيبت أمي بالجزع

وأخذت تصرخ وتحتضني ولما رأيتها كذلك كتمت ألمي وتظاهرت بأنه لم يصبني شئ وأخذت أطبطب على ظهرها حتى تهدأ ، ولكنها انتبهت لدم يسيل ببطء من وجهي فحملتني بسرعة إلى الفرن البلدي وأخذت حفنة من رماده وقامت بوضعها على الجرح حتى سكن وانقطع الدم ومن يومها لزمت الكتاب ولم أتغيب عنه قط

قلت له متعجبا :

نحن لا نريد هذة الصورة المثالية المطلقة في هذا الأيام ، نريد حتى معشارها ، فيبدو أن البون شاسع بين هذه الأيام و تلك الأيام ، ورغم أن لكل أيام خصائصها ولكن كفة أيامك سترجح لا شك ، لقد كانت الأسرة متماسكة رغم هشاشة المبنى الذي يضمها والآن أصبحت الأسرة متفككة رغم صلابة المبنى الذي يضمها وقد كانت المرأة رغم أميتها تحرص على تعليم أبنائها بالقدر الذي لا تحرص عليه المرأة المتعلمة في هذه الأيام

وصلت السيارة إلى الموقف و حان الوقت لانتهاء هذة الرحلة القصيرة جدا التي أخذني إليها هذا الرجل لمدة ربع ساعة عشتها بقلبي في أعماق الماضي و استنشقت من خلالها عبق هذا الزمان ومتانة بنيانه وأصالة أخلاقه .

وعند النزول من السيارة وقبل أن أودع الرجل هممت بأن أحمل عنه ما تبضعه من السوق ولكنه رفض قائلا :

- اذهب لعملك ، ربنا يسهل لك أمورك ، مازال ربي ينعم علي بنعمة الصحة والعافية والجسد الخالي من الأمراض ، أعانكم الله على أيامكم

مضى بعيدا ، ومازلت أرقبه متعجبا فهو يمشي شامخا ويزاحم الشباب الذين في سن أحفاده ، في الوقت الذي لا يعبأ فيه أحد منهم بوجوده .